

## موسوعية العلماء المسلمين: ابن السمح الغرناطي أنموذجاً

أ.م. د. غادة بنت عبدالله بن عبدالرحمن القبلان

المملكة العربية السعودية

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

قسم التاريخ والحضارة

### الملخص

تناولت هذه الدراسة العديد من العلماء المسلمين الذين برعوا وذاع صيتهم بمؤلفاتهم التي لم تقتصر على جانب واحد من العلوم رغم اشتهارهم بهذا العلم أو ذاك، بل شملت تخصصات مختلفة وهؤلاء هم ما يمكن أن يُطلق عليه ضمن حركة الحضارة بالعلماء الموسوعيين بما تميزوا به من موسوعية العلم ببروزهم بمجموعة من العلوم، وقد عمدت الدراسة إلى استعراض أحد هؤلاء العلماء الذين برزوا بهذه العلوم كنموذج من نماذج الموسوعيين، حيث تركزت موسوعيته في نبوغه بالعديد من العلوم التطبيقية أكثر من العلوم الشرعية، ذلكم هو العالم الاندلسي ابن السمح الغرناطي (ت ٤٢٦هـ / ١٠٣٥م).

الكلمات المفتاحية: العلوم، العلماء، الموسوعيون، ابن السمح، الغرناطي.

**Encyclopedic Muslim Scholars: Ibn AlSamah Algrandi as an example**

**Ghada Abdullah Al Qoblan**

Kingdom of Saudi Arabia

Al Imam Muhammed Ibn Saud Islamic University

History and Civilization Department

### Abstract

This study handles many Muslim scholars famous for their interdisciplinary books, that not only included their specialization, but other different ones. Those scholars can be categorized under the civilization movement and called encyclopedic scholars as distinguished with comprehensive knowledge: one example that can be cited in this respect– with brilliance in many applied sciences more than sharia sciences- is the Andalusian scholar Ibn Alsamah Al granadi (426 H-1035 A.D).

**Keywords:** Sciences, Scholars, Encyclopedic, Ibn Al Samah, Algranadi.

## المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.. أما بعد:

فقد أولى الإسلام العلم عنايةً شاملةً، وجعل له مكانةً مميزةً تظهر في الكثير من النصوص القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة والتطبيق العملي لجزئياته، ويُعدُّ القرآن الكريم منطلق العلم، حيث كانت أولى آية نزلت منه حائثةً على القراءة التي هي المفتاح الأساسي لكل العلوم سواء أكانت علومًا دينية أم علومًا دنيوية، فقال الله عزَّ وجل: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ). [العلق: ١-٥]

ولم يقتصر الإسلام في ذلك على دور التوجيه إلى طلب العلم والحث عليه فحسب، بل دعا إلى التماس أبواب العلوم النافعة وطرقها بشتى المجالات المتاحة، والسعي إليها ما أمكن حتى يصل الناس جميعًا إلى ما فيه مصلحة البشرية، وتيسير أمور حياتهم الدينية والدنيوية.

وقد دعا الإسلام إلى تعلم مختلف العلوم النافعة، وجعل لكل علم درجة ومنزلة، فجعل العلوم الشرعية أفضلها وأجلها، ثم تلا ذلك مجموعة من العلوم النافعة للمصالح البشر في مختلف أحوالهم.

ولم يقف بروز العلماء المسلمين عند حد علم دون آخر، بل ظهر ضمن خارطة الحياة العلمية والفكرية لدى المسلمين عبر عصورهم ما يمكن أن يُطلق عليه (موسوعية العلماء) المؤدية إلى التكامل المعرفي، بمعنى إمام العالم بمجموعة من العلوم والمعارف إمامًا يؤدي إلى المعرفة المتخصصة، حيث إننا ومن خلال دراسة هؤلاء الأعلام نجد منهم من أتمَّ بعلمه الشريعة من فقه وعلوم القرآن والحديث، وكذا اللغة والأدب، وربما الطب والرياضيات والفلك وغيرها من العلوم حتى أصبح من غير الشائع أن يكتفي العالم بعلم دون غيره.

ونقتخر حضارتنا الإسلامية وتتباهاى بوجود هذا النمط من العلماء الذي كانوا شواهد لركي الحضارة الإنسانية عبر عصورها بما أدى إلى وحدة العلوم والمعارف وتكاملها في خدمة الإنسان بما يحقق مصالحه الدينية والدنيوية.

ومن خلال تخصصي في الحضارة الإسلامية وتاريخ العلوم عند المسلمين، ومن خلال تكرر اطلاعي على سير مجموعة من العلماء في مختلف ميادين العلوم؛ تبين لي انتشار هذه الظاهرة التي تُعدُّ غاية في الأهمية وتستحق التوقف عندها ولفت النظر إليها، ذلكم هي موسوعية العلماء المسلمين؛ باعتبار أنَّ هناك مجموعة من العلماء لم يكتفوا بحقل واحد من حقول العلوم والمعارف، وإنما اشتغلوا في حقول معرفية مختلفة، وتنقلوا بين تخصصات متنوعة، سواء على

المستوى النظري أو المستوى التطبيقي وبرعوا فيها، فنجده مثلاً بارعاً بالفقه وعلوم الشريعة، وهو في الوقت نفسه متميزاً في علوم الرياضيات إلى جانب بروزه في الطب والفلك والكيمياء وهكذا بما يوسم بموسوعية العلماء، مع الإشارة إلى أنني لن أعمد إلى طرق نظريات تصنيف العلوم عند العلماء المسلمين أو تداخلها وتكاملها فيما بينها لأنَّ لهذا مجاله الذي سبق طرقه في بحوث سابقة.

هذا الأمر أدى إلى تفكيري ببحث هذه الظاهرة وتناولها علمياً ورصدها من خلال مجموعة من العلماء الموسوعيين الذين أثروا حضارتنا الإسلامية، وكان لنتاجهم أثرٌ في تقدم العلوم وارتقاء الحضارة الإنسانية بمختلف ميادينها، مخصصة الحديث عن عالم برز في هذا الجانب، وكان مثلاً في تناول مجموعة من العلوم الإنسانية والتطبيقية بما يستحق أن يكون أنموذجاً لهذه الدراسة، ذلكم هو ابن السمع الغرناطي الذي عاش في بلاد الأندلس فيما بين (٤٢٦-٣٦١هـ/ ٩٧٢-١٠٣٥م). الذي اشتهرت موسوعيته ببروزه في أكثر من فرع من ميادين العلوم التطبيقية دون أن أجد له أثراً في ميادين علوم الشريعة واللغة.

وعلى الرغم مما اشتهر به ابن السمع، وما تركه من أثر في عديد من علوم الطب والرياضيات والفلك؛ إلا أنَّ مصادر ترجمته لم توفه حقه من التوسّع في سرد سيرته وأثاره العلمية، إذ أحيطت سيرته بشيء من الغموض على الرغم من وقوفي على مجموعات من المصادر العربية والأجنبية، وهو أمر مستغرب في عالم له آثاره ومناهجه المؤثرة في العلم، وهذا مدعاة إلى عقد هذه الدراسة لتوفيه بعضاً مما يستحق.

ونظراً لطبيعة المادة العلمية المكونة لهذا البحث؛ فقد تناولته وفق المحورين الآتيين:

■ المحور الأول: موسوعية العلماء المسلمين:

ظهرت لنا - ضمن حركة الفكر الإسلامي عبر عصوره الزاهرة- فلسفة التكامل المعرفي أو وحدة العلوم الإنسانية باعتبارها حركة الارتباط بالنشاط العلمي والمعرفي لمختلف العلوم، وهو ما يمكن أن يُعبّر عنه بموسوعية العلوم وتداخلها فيما بينها، وأداته أولئك العلماء الذين لم يكتفوا بعلم دون آخر، وإنما أخذوا من كلّ علم بنصيب.

وبهذا أصبحت تلك الخصلة سمة لكثير من علماء الحضارة الإسلامية الذين كان لهم إسهام في أكثر من علم، فوسموا بالعلماء الموسوعيين. وكان العالم منهم يعرف معظم ما انتهى إليه العلم في مجموعة من التخصصات العلمية الأساسية.

وقد انصب اهتمام العلماء الأوائل في بدايات حركة التأليف العلمي في عصور الإسلام الأولى على علوم الشريعة والتأليف فيها، وذلك لكي يعرف المسلم دينه ويعمل به ويُطبق العبادات على الوجه الصحيح لأنّ بها قوام دينه ودينه، ولأنّ العلم كان في أوله هو العلم الشرعي بمعنى الاهتمام بتلك العلوم المتعلقة بدراسة الدين وفقه الشريعة وتطبيقاتها، مثل علوم القرآن وعلوم السنة والحديث الشريف وعلوم العقيدة وعلوم الفقه وأصوله والعبادات والمعاملات، ومع هذا فقد ارتبطت تلك العلوم بعلوم أخرى مثل علوم اللغة والأدب والتاريخ، ومن ذلك تعدى اهتمام العلماء المسلمين إلى تأليف عديد من الكتب التي تخدم العلوم الشرعية بفروعها، ثمّ بعد مدة من الزمن غير طويلة انسحب ذلك إلى الاهتمام والتأليف بعلوم تطبيقية أخرى تخدم البشرية في مختلف أمور حياتهم كعلم الطب والفلك والفيزياء والحساب والجغرافيا وغيرها من العلوم ذات العلاقة، فظهر اهتمامهم بعلم الفلك مثلاً لعلاقته الوطيدة بالشعائر الدينية كالصلاة لتحديد أوقاتها واتجاه القبلة حسب المواقع الجغرافية، ولرصد حركة القمر لتحديد موعد بدء وانتهاء الصوم بالإضافة إلى تحديد موسم الحج والأعياد، واهتموا كذلك بعلم الحساب لأهميته بتطبيق الأحكام الشرعية مثل توزيع الميراث ومعرفة أنصبة الزكاة وجباية الخراج، وأيضاً اهتمامهم بعلم النبات والحيوان لضرورة ذلك لعمارة الأرض وحاجتهم اليومية، لذا نجد أنّ مستلزمات الحياة وإقامة الشعائر والعبادات وعمارة الأرض جعلتهم يفكرون ويستكشفون وينتجون ويؤلفون في علوم شتى.

ومن هذا المنطلق وتلك الدوافع برزت لنا أسماء علماء مسلمين ألفوا وبرعوا في هذه العلوم المختلفة ومن هؤلاء العلماء من جمع وبرع وصنّف في أكثر من علم من هذه العلوم. وهذا ما يمكن أن يُطلق عليه ضمن حركة الحضارة بالعلماء الموسوعيين بما تميزوا به من موسوعية العلوم ببروزهم بمجموعة من العلوم التي لم يكتفوا منها بمجرد النظر والدراسة وإنما وصلوا لمرحلة التخصص والإمامة والتأليف حتى وسّموا بهذا العلم وكانهم تخصصوا به وحده دون غيره.

وحقيقة فإننا نفتخر حينما نطالع سير مجموعات من هؤلاء العلماء في كتب التراجم والأعلام عبر عصور المسلمين؛ فنجد لديهم تكرر عبارات: وقد برز في علوم شتى، وكان علامة زمانه في مختلف العلوم، وبرع في فروع العلم المختلفة، وغير هذه من العبارات التي تؤكد بروز هذه الظاهرة لدى مجموعة واسعة من العلماء منذ عصور الإسلام المبكرة، وهذه مقدره غير اعتيادية وتمكن غير بسيط من قدراتهم على التأليف والموسوعية بفروع متفرقة من الفنون، والمبهر في الأمر ما يبلغه أحدهم من مشيخة وإمامة في أكثر من فن من ذلك تأليفاً وتدریساً، وتخرج آثاره فيها جميعاً متميزة ومليئة بالعلم والفهم والدقة والوعي. وكل واحد من هؤلاء قد ترك أعداداً وافرة من الكتب في مختلف ميادين العلوم والمعارف؛ هي من أساسات حضارتنا العلمية الزاهرة.

إلا أنه مع ما ذكر حول موسوعية العلماء ونبوغهم في عديد من العلوم، فإنه يلزم أن أشير هنا إلى أن هؤلاء العلماء متفاوتون فيما بينهم في التميز والنبوغ في علوم دون أخرى بما يمكن أن أصنفه إلى علماء مبدعين في مجموعة من العلماء سابقين غيرهم فيها إلى جانب نبوغهم في علوم أخرى بنسب متقاربة، وكذا علماء جمعيين تتمثل جهودهم في تجميع جهود علماء سبقوهم في أي من العلوم، وتصنيفها في مجلدات واسعة مفيدة في أبوابها، وهؤلاء على الرغم من أنهم لم يضيفوا جديدًا لتلك العلوم، إلا أنهم حفظوا لنا جهودًا سابقة مما اطلعوا عليه وجمعوه في شتى العلوم، وصنّفوا ذلك في موسوعات تحقّق أثرها في مختلف ميادين العلم.

ورغبة في إيراد شواهد من هؤلاء العلماء وما قدموه للحضارة الإسلامية ضمن مقصد هذا البحث، فإنني سأعمد إلى إيراد نماذج منهم حسب ترتيب سني وفياتهم باعتبارهم شواهد حيّة لتلك الظاهرة الحضارية فائقة القدر والأثر، وذلك وفق الآتي:

• الإمام الشافعي محمد بن إدريس (ت ٢٠٤هـ / ٨١٩م) الذي كان حجة في اللغة، وكان ضليعاً في الشعر، بالإضافة إلى نبوغ الشافعي في علوم اللغة العربية والشعر فقد كان أصولياً متمكناً، فهو الذي وضع أسس علم أصول الفقه في كتابه الرسالة. وهو حجة في علم التوحيد والعقيدة وحجة في الفقه وحجة في أيام العرب وتاريخ العرب وتاريخ الإسلام وكان عالماً بالفراسة أي يتفهم الإنسان والاستدلال بهيئته فيعرف شخصيته من قسماته وملامحه.<sup>(١)</sup>

ومما وُسمت به موسوعية الشافعي أنه ما من صاحب فنٍ إلا ويعرف له قدره، فهو حجة في التفسير والحديث وعلومهما، وحجة في الفقه والأصول وسائر العلوم الشرعيّة، وكذا حجة في اللغة: أدباً ونحواً وبلاغة وشعرًا وغيرها، وهو بهذا حجة في سائر العلوم التي ظهرت في عصره، كما شهد له بذلك العالم أيوب بن سويد الرملي لما رآه بقوله: « ما ظننتُ أنّي أعيشُ حتّى أرى مثلَ هذا الرَّجُلِ قَطُّ ». <sup>(٢)</sup>

ثمَّ إنَّ الميراث الفقهي للإمام الشافعي الذي اتبعه العلماء من بعده وقضى به القضاة ورجعوا إليه وعملوا به في أحكام الشرع، يؤكد مدى عبقرية هذا العالم الموسوعي الذي جمع بين عدة فنون من العلوم حتى بلغ فيها المنتهى، وأصبح مرجعًا أساسًا لمن بعده في عديد منها.

• ابن الكلبي هشام بن محمد بن السائب (ت ٢٠٤هـ / ٨١٩م) الذي يعد من أعلام العلماء الموسوعيين، إذ يذكره الذهبي بقوله: «وهو أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب العلامة، الأخباري، النسابة الأوحى أبو المنذر هشام ابن الأخباري الباهر محمد بن السائب بن بشر الكلبي، الكوفي، له العديد من المؤلفات منها: "كتاب (الجمهرة) في النسب، وكتاب (حلف الفضول) وكتاب (المنافرات)، وكتاب (الكنى)، وكتاب (ملوك الطوائف)، وكتاب (ملوك كندة)»<sup>(٣)</sup> ومن هذا فقد وقفنا على أنَّ ابن الكلبي كتب في تسعة فنون، وفي كل فن كتب عشرات الكتب فكتب في أخبار الأوائل وأخبار البلدان والأحلام والمآثر والموجودات والشعر والأسماء وأخبار الجاهلية وأخبار الإسلام، وهذه مقدره غير عادية وتمكن غير بسيط من قدرته على التأليف والموسوعية بألوان متفرقة من الفنون، والمبهر أنه بلغ الذروة في كل فن وكتاباتة فيها جميعًا متميزة ومليئة بالعلم والفهم والدقة والوعي.

• الطبري الإمام أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبري (ت ٣١٠هـ / ٩٢٢م)، إذ يعدُّ من بين هؤلاء العلماء الموسوعيين ورغم اشتهاره بالتفسير ويعد عمدة المفسرين، فهو في تفسير القرآن كأنما لم يتخصص في علم من العلوم سواه لكن الذي يقرأ التاريخ لا يستطيع ان يفهم تاريخ الإسلام بدون ان يقرأ تاريخ الطبري وكأن الطبري لم يكن متخصصًا في علم من العلوم سوى التاريخ. وإذا ذهبنا إلى الفقه وجدنا الطبري إمامًا في الفقه وصاحب مذهب فقهي وكأنه ليس متخصصًا إلا في الفقه وهكذا الأمر في القراءات والعقيدة والحديث والأصول والسير والقضاء والأخلاق والرؤى والأحلام واللغة والشعر. ووردت ترجمة الطبري لدى الخطيب البغدادي بقوله: «استوطن الطبري بغداد، وأقام بها إلى حين وفاته، وكان أحد أئمة العلماء يحكم بقوله، ويرجع إلى رأيه لمعرفته وفضله. وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، وكان حافظًا لكتاب الله، عارفاً بالقراءات بصيرا بالمعاني، فقيها في أحكام القرآن، عالما بالسنن وطرقها صحيحها وسقيمها وناسخها ومنسوخها، عارفاً بأقوال الصحابة والتابعين، ومن بعدهم من الخالفين في الأحكام، ومسائل الحلال والحرام، عارفاً بأيام الناس وأخبارهم، وله الكتاب المشهور تاريخ الأمم والملوك، وكتاب في التفسير لم يصنف أحد مثله، وكتاب سماه تهذيب الآثار لم أر سواه في معناه إلا أنه لم يتمه، وله في أصول الفقه وفروعه كتب كثيرة، واختيار من أقاويل الفقهاء. وتقرده بمسائل حفظت عنه»<sup>(٤)</sup>.

• البيروني أبو الريحان محمد بن أحمد المنسوب إلى بيرون (ت ٤٤٠هـ / ١٠٤٨م)، وهو من بين أشهر هؤلاء العلماء الموسوعيين الذين تفوقوا وفاقوا في مختلف فنون المعرفة وميادينها إذ يُعدُّ أحد ألمع الوجوه التي يمكن أن تعتر بها الحضارة الإسلامية من خلال تاريخ الفكر الإسلامي وأكثرها جاذبية، عالمنا وعلى الرغم من أن اسم البيروني يحتل مكانته من الأدب العربي في ميدان الجغرافيا والرحلات، إلا أنه يتبين لنا من خلال المصنفات التي سنذكرها أنه كان رياضياً وفلكياً وفيزيائياً، وفيلسوفاً، وشاعراً وأديباً، وعالم اجتماع ومؤرخاً، فعلياً كان كل أولئك، وبرز في كل فروع المعرفة الإنسانية هذه، وبعبارة أخرى كان مؤلفاً انتظم نشاطه كل دائرة العلوم المعاصرة له، والتي تحتل بينها العلوم الرياضية والفيزيائية مكانة الصدارة عنده. (٥)

وكان مشتغلاً في علم الهيئة والنجوم وله نظر جيد في صناعة الطب وكان معاصراً للشيخ الرئيس ابن سينا المتوفى سنة ٤٢٨هـ / ١٠٣٧م، وبينهما محادثات ومراسلات، وقد وجدت للشيخ الرئيس أجوبة ومسائل سأله عنها أبو الريحان البيروني وهي تحتوي على أمور مفيدة في الحكمة وأقام أبو الريحان البيروني بخوارزم، ولأبي الريحان البيروني من الكتب كتاب الجماهر في الجواهر وأنواعها وما يتعلق بهذا المعنى، كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية، كتاب الصيدلة في الطب استقصى فيه معرفة ماهيات الأدوية ومعرفة أسمائها واختلاف آراء المتقدمين وما تكلم كل واحد من الأطباء وغيرهم فيه وقد رتبته على حروف المعجم، كتاب مقاليد الهيئة، كتاب تسطيح الكرة، كتاب العمل بالإسطرلاب، كتاب القانون المسعودي، كتاب التفهيم في صناعة التنجيم، مقالة في تلافي عوارض الزلّة في كتاب دلائل القبلة، رسالة في تهذيب الأقوال، مقالة في استعمال الإسطرلاب الكري، كتاب الأطلال، كتاب الزيج، اختصار كتاب بطليموس القلوزي. (٦)

ورغم اهتمامه بالعلوم التطبيقية، إلا أن البيروني كان ذا باعٍ طويل في الأدب أيضاً؛ لذا كتب شرح ديوان أبي تمام، ومختار الأشعار والآثار. كما كان صاحب مؤلفات عديدة في الفلسفة، مثل: كتاب المقالات والآراء والديانات، ومفتاح علم الهند، وجوامع الموجود في خواطر الهند، وغير ذلك العشرات من المؤلفات النافعة.

وبهذه المؤلفات يكاد البيروني يكون قد أَلّف في كل فروع المعرفة التي عهدها عصره؛ فقد كتب في الرياضيات والفلك والتنجيم والحكمة والأديان والتاريخ والجغرافيا والجيولوجيا والأحياء والصيدلة.

• الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري (ت ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م) وهو من العلماء المسلمين الموسوعيين، وهو أيضاً أكبر قضاة آخر الدولة العباسية، صاحب

التصانيف الكثيرة النافعة، الفقيه الحافظ، من أكبر فقهاء الشافعية والذي ألف في فقه الشافعية موسوعته الضخمة في أكثر من عشرين جزءاً.

وقد ذكره ابن خلكان أنه كان من وجوه الفقهاء الشافعية ومن كبارهم، أخذ الفقه عن أبي القاسم الصيمري بالبصرة، ثم عن الشيخ أبي حامد الإسفرايني ببغداد، وكان حافظاً للمذهب وله فيه كتاب "الحاوي" الذي لم يطالعه أحد إلا وشهد له بالتبحر والمعرفة التامة بالمذهب. وفوض إليه القضاء ببلدان كثيرة، واستوطن بغداد في درب الزعفراني، وله من التصانيف غير الحاوي، تفسير القرآن الكريم، والنكت والعيون، وأدب الدين والدنيا، والأحكام السلطانية، وقانون الوزارة، وسياسة الملك، والإقناع في المذهب، وهو مختصر، وغير ذلك، وصنف في أصول الفقه والأدب وانتفع الناس به.<sup>(٧)</sup>

• الشريف الإدريسي (ت ٥٦٠هـ / ١١٦٦م)، وهو أبو عبدالله محمد بن محمد ابن عبد الله بن إدريس الصقلي، أحد كبار الجغرافيين العرب المسلمين، ولد في مدينة سبتة شمال المغرب، وتلقى تعليمه في قرطبة الأندلسية ولذا يسمى أحياناً بالقرطبي، وطاف البلاد فوصل مصر والحجاز في الشرق، والبرتغال وفرنسا وإنجلترا في الغرب، والقسطنطينية في الشمال. عاش الإدريسي في صقلية فترة من الزمن ونزل ضيفاً على ملكها روجر الثاني الذي أعاد عليه الأموال لإنجاز العديد من المؤلفات الرائدة، ثم عاد إلى بلده سبتة ليقضي بقية حياته فيها. اشتهر الإدريسي بكتاباته في الجغرافيا والنبات والفلك والطب والفلسفة والأدب، وقد قام بإنجاز العديد من الأعمال العلمية لعل من أهمها كتابه نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الذي ألفه في صقلية بناء على طلب الملك روجر الثاني. وقد اكتسب هذا المؤلف شهرة عظيمة لما احتواه من معلومات موسوعية عن الكثير من الأماكن في الشرق والغرب التي ذكرها الأقدمون مضيفاً إليها معلومات ميدانية رآها ورصدها الإدريسي في رحلاته وأسفاره التي اخترقت الآفاق.<sup>(٨)</sup> ولم يكن الإدريسي جغرافياً فقط، وإنما كان عالماً متعدد المعارف والمهارات في كثير من فروع العلم الأخرى كالصيدلة والطب والنباتات، كما كان أديباً جيد الأدب وشاعراً، وله مؤلفات متعددة في هذه العلوم منها: (كتاب الجامع لأشتات النبات الذي يُعرف أيضاً باسم المفردات، والأدوية المفردة، وكتاب روض الأانس ونزهة النفس، الذي يُعرف بالمسالك والممالك).<sup>(٩)</sup>

• ابن عساكر، الإمام الحافظ ثقة الدين أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي (ت ٥٧١هـ / ١١٧٦م). وهو إمام أهل الحديث في زمنه، وحامل لوائهم، ومع هذا فهو صاحب أكبر تصنيف في تاريخ دمشق، وهو تاريخ مدينة دمشق.<sup>(١٠)</sup>



وكان ابن عساكر غزير التأليف حتى بلغت مؤلفاته (١٣٨) مؤلفاً في عديد من المعارف؛ تؤكد موسوعيته وبروزه في أكثر من علم، وبخاصة الحديث والأدب والتاريخ وعلم الرجال والمناقب، كان من أهمها: كتاب تاريخ مدينة دمشق، التالي لحديث مالك العالي، مُعجم القرى والأمصار، تبيين كذب المُفتري فيما نُسب إلى الأشعري، الأربعون الطّوال، مناقب الشبان، حديث أهل صنعاء الشام، فضل المدينة، فضل القدس، الزهادة في ترك الشهادة، في فضائل الربوة والنيرب، جزء أهل كفرسوسة. إضافة إلى مجموعة من المجالس المخطوطة والمطبوعة أهمها في ذم من لا يعمل بعلمه، وفي التوبة، ودم قرناء السوء، كما أنّ للحافظ أبي القاسم بن عساكر شعر كثير، قلما أملى مجلساً إلا ختمه بشيء من شعره.

• ابن رشد، أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن أحمد (ت ٥٩٥هـ/١١٩٩م) الذي يُعدُّ من أشهر العلماء الموسوعيين بالأندلس، وأحد كبار الفلاسفة في الحضارة العربية الإسلامية الذي اجتمعت في شخصيته المعرفة بالعلوم النظرية والتطبيقية، فهو فيلسوف وفقهه وطبيب وفلكي وقاضي وفيزيائي ذكره الذهبي بقوله: «الامام، العلامة، شيخ المالكية، قاضي الجماعة بقرطبة، أبو الوليد محمد بن أحمد بن أحمد بن رشد القرطبي، المالكيّ. كان فقيهاً عالمًا، حافظاً للفقه، مقدماً فيه على جميع أهل عصره، عارفاً بالتقوى، بصيراً بأقوال أئمة المالكية، نافذاً في علم الفرائض والأصول، من أهل الرياسة في العلم، والبراعة والفهم، مع الدين والفضل والوقار والحلم، والسمت الحسن، والهدى الصالح، ومن تصانيفه كتاب المقدمات لأوائل كتب المدونة، وكتاب البيان والتحصيل لما في المُستخرجة من التوجيه والتعليل، واختصار المبسوط، واختصار مشكل الآثار للطحاوي، سمعنا عليه بعضها، وسار في القضاء بأحسن سيرة، وأقوم طريقه، ثم استعفى منه، فأعفى، ونشر كتبه، وكان الناس يعولون عليه ويلجؤون إليه، وكان حسن الخلق، سهل اللقاء، كثير النفع لخاصته، جميل العشرة لهم، بار بهم عاش سبعين سنة. ومات في ذي القعدة سنة عشرين وخمس مائة، وصلى عليه ابنه أبو القاسم».<sup>(١١)</sup>

وبمناسبة بروز ابن رشد في الطب أشير هنا إلى أنه لا بد من العالم مهما كان بارعاً في أي تخصص أن يكون ملماً باللغة العربية بجانب تخصصه الأساسي وهذا يدل على ثراء لغة القرآن وتداخلها في مختلف العلوم. وقد تكرر هذا الأمر لدى كثير من العلماء، ومن ذلك ما ذكره ابن أبي أصيبعة في ترجمته للطبيب ابن جميع من أنه كان له مجلس عام للذين يشتغلون عليه بصناعة الطب في فسطاط مصر. وأضاف أنه كان له نظر في العربية وتحقيق للألفاظ اللغوية وكان لا يقرأ إلا وكتاب الصحاح للجوهري حاضر بين يديه ولا تمر كلمة لغة لم يعرفها حق المعرفة إلا ويكشفها منه ويعتمد على ما أورده الجوهري في ذلك.<sup>(١٢)</sup>

• ابن المقرئ (ت ٨٣٧هـ / ١٤٣٤م) إسماعيل بن أبي بكر بن عبد الله بن إبراهيم بن علي بن عطية بن علي الشاوري الزبيدي اليمني الحسيني الشافعي، المكنى بأبي محمد والملقب بشرف الدين.

ورغم اشتهار ابن المقرئ بشتى مجالات اللغة العربية إلا أنه لم يقف عند هذا الحد؛ بل برع في علم الفقه والعروض والتاريخ والنحو والقوافي وغيرها من العلوم، أوجزها السخاوي بقوله: «أخذ العربية عن علماء وقته كمحمد ابن زكريا وعبد اللطيف الشرجي ومهر فيهما وفي غيرها من العلوم وبرز في المنطوق والمفهوم، وتعانى النظم فبرع فيه وأقبل عليه ملوك اليمن وصار له ثم حظ عند الخاص والعام وله كتابه المسمى عنوان الشرف الوافي في علم الفقه والعروض والتاريخ والنحو والقوافي»<sup>(١٣)</sup> فهذا الكتاب يتحدث عن الفقه، وعلم العروض والقوافي، وغيرها من العلوم المختلفة.

• المقرئ (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١م) أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن تميم بن عبد الصمد الشيخ تقي الدين المقرئ، وأصل أسرته من بعلبك ثم تحول أبوه إلى القاهرة، وولي بها بعض ولايات من متعلقات القضاة وولي التوقيع في ديوان الإنشاء، وكان مولد تقي الدين في سنة ست وستين وسبعمائة، ونشأ نشأة حسنة، ونظر في عدة فنون، وأولع بالتاريخ فجمع منه شيئاً كثيراً وصنف فيه كتباً، وكان لكثرة ولعه بالتاريخ يحفظ كثيراً منه، وكان إماماً بارعاً مفنناً متقناً ضابطاً دينياً خيراً، محباً لأهل السنة يميل إلى الحديث والعمل به.<sup>(١٤)</sup>

ورغم تولع المقرئ بالتاريخ وهو إمام المؤرخين الموسوعيين حيث اشتهر ذكره بذلك ويتبين لنا من خلال المصنفات التي سنذكرها أن له نظر في عدة فنون أخرى وشملت مصنفاته جميع المجالات الشرعية واللغوية والأدبية.

ولقد ترجم له تلاميذه بما يؤكد موسوعيته، فذكره ابن تغري بردي بقوله: «الشيخ الإمام البارع، عمدة المؤرخين، وعين المحدثين، تقي الدين المقرئ»،<sup>(١٥)</sup> وأضاف تلميذه الحافظ السخاوي قائلاً: «ونظر في عدة فنون وشارك في الفضائل وخط بخطه الكثير وانتقى وقال الشعر والنثر وحصل وأفاد وناب في الحكم وكتب التوقيع وولي الحسبة بالقاهرة غير مرة أولها في سنة إحدى وثمانمائة والخطابة بجامع عمرو وبمدرسة حسن والإمامة بجامع الحاكم ونظره وقراءة الحديث بالمؤيدية عوضاً عن المحب بن نصر الله حين استقراره في تدريس الحنابلة بها وغير ذلك، وحمدت سيرته في مباشرته».<sup>(١٦)</sup>

وكان من مصنفاته في مختلف العلوم: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ويعرف بخط المقرئ، والسلوك في معرفة دول الملوك وتاريخ الأقباط والبيان والإعراب عما في

أرض مصر من الأعراب رسالة، والتنازع والتخاصم في ما بين بني أمية وبني هاشم وتاريخ الحبش وشذور العقود في ذكر النقود رسالة، وتجريد التوحيد المفيد ونحل عبر النحل وإمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع تسعة مجلدات، ومنتخب التذكرة تاريخ، وتاريخ بناء الكعبة واتعاظ الحنفاء في أخبار الأئمة الفاطميين والخلفاء ورسالة في الأوزان والأكيال والخبر عن البشر تاريخ عام كبير، وعقد جواهر الأسفاط في ملوك مصر والفسطاط، ودرر العقود الفريدة في تراجم معاصريه، والإمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام والطرفة الغربية في أخبار حضرموت العجيبة ومختصر الكامل لعبد الله بن عدي ومذكرات الميمني وشارع النجاة في أصول الديانات واختلاف البشر فيها،<sup>(١٧)</sup> كذلك تناول علم الاقتصاد بطريقة علمية بفكر اقتصادي وهذا عندما ألف كتاب إغاثة الأمة بكشف الغمة.

وبعد، فإنّه باستعراض الإنجازات العلمية والمؤلفات الموسوعية التي حققها هؤلاء الموسوعيون عبر خارطة تاريخ العلوم عند المسلمين؛ يحتاج إلى مزيد عمل وجهد علمي ينصف هؤلاء، ويوضح حقيقة أثرهم، باعتبار أنّ ما وصلنا إليه من تقدم ومعرفة شاملة في كافة جوانب العلوم الشرعية والعربية والعلوم التطبيقية ما هو إلا امتداد لجهود هؤلاء الموسوعيين الذين بفضل الله ثم بفضل إنجازاتهم ومؤلفاتهم وصلت حضارتنا إلى ما وصلت إليه، وتؤكد أثرها في العلم الإنساني في مختلف ميادين العلوم وفروع المعارف.

#### ■ المحور الثاني: ابن السمح الغرناطي أنموذجاً:

✓ نسبه ونشأته:

هو أبو القاسم أصبغ بن محمد بن السمح المهندس الغرناطي القرطبي المهري.<sup>(١٨)</sup> وقد ترعرع ابن السمح بقرطبة مسقط رأسه وتعلم بها، ثم انتقل إلى غرناطة ونال بها شهرة عظيمة وتوفي بها. وكان خروجه من قرطبة كما ذكر ابن الأبار زمن الفتنّة، واستقرّ بغرناطة في كنف حبّوس بن ماكسن الصنهاجي والد باديس وتأثّل نعمة واسعة وحالاً جميلة.<sup>(١٩)</sup> وينكر الدقّاع أنه لم يكن خروج ابن السمح إلى غرناطة التي كانت عاصمة الدولة الإسلامية في الاندلس، للنزهة والترفيه وإنما للاتصال العلمي، لأنّ غرناطة كانت مركزاً للحركة الفكرية في جميع أجزاء الاندلس، فالعلماء يأتون إليها من كل ناحية للبحث والنقاش في العلوم النظرية والتجريبية، فيجتمعون في قصر الحمراء للتداول في نظرياتهم العلمية، وكان ابن السمح الغرناطي في مقدمتهم.<sup>(٢٠)</sup>

✓ عصره:

أشار ابن أبي أصيبعة إلى أنّ ابن السمع عاش في زمن الخليفة الحكم<sup>(٢١)</sup> أي فيما بين (٣٦١-٤٢٦هـ / ٩٧٢-١٠٣٥م). بمعنى أنه عاش ضمن عصر الخلافة الأندلسية الذي تميّز بنضج العلوم والفكر ووسم بنهضة علمية مشهودة.

حيث نهضت الحركة العلمية في زمن الخلافة نهضة شاملة، وكان من مظاهرها اتضاح الشخصية العلمية للأندلس واستقلالها. فقد شجع الخليفة عبدالرحمن الناصر (٣٠٠-٣٥٠هـ / ٩١٢-٩٦١م) وابنه الحكم المستنصر (٣٥٠-٣٦٦هـ / ٩٦١-٩٧٦م) العلماء وأغدقا عليهم العطاء، وحثوا على التأليف والبحث في مختلف ميادين العلوم<sup>(٢٢)</sup>.

وقد نالت مختلف العلوم التطبيقية نصيبها الوافر من اهتمام عبدالرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر بالله والذي عرف بحبه للعلماء وتكريمهم، واستمر على هذا الحال طوال مدة خلافته، فقد كانت له همة في اكتساب الفضائل والتشبه بأهل الحكمة من الملوك<sup>(٢٣)</sup>.

وحيث عاش مؤلفنا ابن السمع زمن خلافة الحكم المستنصر بالله الذي عُرف عنه حبه للكتب وحرصه على الحصول عليها مهما كلف الأمر، فقد انتدب في أيام أبيه عبدالرحمن الناصر إلى بغداد ومصر وغيرها من يستجلب عيونَ التوالمف الجليلة والمصنفات الغربية في العلوم القديمة والحديثة وجمع منها في بقية أيام أبيه ثم في مدة حكمه ما كاد يضاهي ما جمعه خلفاء بني العباس في الأزمان الطويلة فتحرك الناس في زمانه إلى قراءة كتب الأوائل وتعلم مذهبهم<sup>(٢٤)</sup>، حتى عجت مكتبته بنحو أربع مئة ألف مجلد، بذل جهداً في جمعها من مختلف الأقطار ويذكر لنا الأزدي ذلك بقوله: «جامعاً للعلوم، محباً لها، مكرماً لأهلها، وجمع من الكتب في أنواعها ما لم يجمعه أحد من الملوك قبله هنالك؛ وذلك بإرساله عنها إلى الأقطار، واشترائه لها بأعلى الأثمان، ونفق ذلك عليه فحمل إليه». <sup>(٢٥)</sup> لذلك نهضت الأندلس علمياً في شتى الميادين خلال ذلك العصر.

وفي هذا الجو العلمي استيقظ فضول العلماء للإبداع والتأليف في مختلف العلوم، لذا نجد كثرة العلماء والكتاب والمؤلفين والمبدعين والموسوعيين الذين ظهوروا خلال هذا العصر والعصور التالية له.

✓ شيوخه وتلامذته:

ورغم ما وصل إليه ابن السمع الغرناطي من بروز علمي في عدد من العلوم ، إلا أنّ مصادر ترجمته لم تمدنا بأحد ممن تتلمذ عليه سوى العالم الأندلسي مسلمة المجريطي (ت ٣٩٨هـ / ١٠٠٧م)، وهو أبو القاسم مسلمة بن أحمد المجريطي وكان في زمن الحكم<sup>(٢٦)</sup> إمام

الرياضيين بالأندلس وأعلم من كان قبله بعلم الأفلاك وحركات النجوم وكانت له عناية بإرصاد الكوكب، وله كتاب حسن في ثمار العدد وهو المعنى المعروف بالأندلس بالمعاملات وكتاب اختصر فيه تعديل الكوكب من زيغ البتاني وعن زيغ محمد بن موسى الخوارزمي ونقل تاريخه الفارسي إلى التاريخ العربي، وتوفي مسلمة قبل الفتنة بالأندلس في سنة ثمان وتسعين وثلاث مئة وقد انجب له تلاميذ جلة. (٢٧)

ويورد لنا صاعد الأنديسي بأن مسلمة المجريطي قد أنجب تلاميذ جلة لم ينجب عالم بالأندلس مثلهم فمن أشهرهم ابن السمح وابن الصفار والزهراري والكرماني وابن خلدون. (٢٨)

أما من تتلمذ على ابن السمح، فإنني من خلال الاطلاع على ترجمته في مختلف مظانها لم أقف إلا على ذكر لأحد تلاميذه عند صاعد الأنديسي بقوله وأخبرني عنه تلميذه أبو مروان سليمان بن محمد بن عيسى الناشئ المهندس أنه توفي بمدينة غرناطة. (٢٩)

#### ✓ ثناء العلماء عليه:

حظي عالمنا ابن السمح بثناء العلماء، وذلك بفضل جده واجتهاده وبروعه في مختلف العلوم حيث قال عنه صاعد الأنديسي أنه كان متحققاً بعلم العدد والهندسة متقدماً في علم هيئة الأفلاك وحركات النجوم وكانت له مع ذلك عناية بالطب وله تواليف حسنة. (٣٠)

وأورد ابن الأبار له ترجمة وافية، كان مما جاء فيها: «كَانَ مِنْ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ الْكَامِلَةِ بِالْعَدَدِ وَالْهَنْدَسَةِ وَالْمَهَارَةِ فِي صِنَاعَةِ الطِّبِّ وَالنَّجْمَةِ أَخَذَ عَنْ مَسْلَمَةَ بْنِ أَحْمَدَ الْمَرْجِطِيِّ وَهُوَ كَبِيرٌ تَلَامِيذِهِ وَكَانَ يَخْتَارُ رَأْيَ أَبِي مُحَمَّدٍ السُّوسِيِّ وَيَقْفُو أَثَرَهُ وَيَفْضَلُهُ». (٣١)

وأضاف ابن فضل الله العمري أنه: «حكيم ترفع له المبار، وطبيب تدفع به المضار، قيم بتركيب الأدوية، وتفاضل التفضيل والتسوية، أحيا الله به القوى الحيوانية، وحفظ النفس الإنسانية، سلك بنظره في الأبدان، وملك ما ليس لاحد به يدان، ونظر في تفاريق العضل، وتفاريق ما كفى من الأغذية وفضل، واستدل بالنبض على ما وراءه، وعرف دواءه على الحقيقة وداءه، بحدس صحيح حصر على ضيق المجاري واتساعها، وانحطاط الدرجات في الأدوية وارتفاعها، إلى غير ذلك من أسباب في علوم وحساب ونجوم وأمور كان بها يقوم». (٣٢)

ثم قال عنه المقرئ: «وأما العدد والهندسة فلم يقسم لنا في هذا العلم نفاذ، ولا تحققنا به، فلنسنا نثق بأنفسنا في تمييز المحسن من المقصر في المؤلفين فيه من أهل بلدنا إلا أنني سمعت من أثق بعقله ودينه من أهل العلم ممن أتفق على رسوخه فيه يقول: إنه لم يؤلف في الأزياج مثل زيغ مسلمة وزيغ ابن السمح، وهما من أهل بلدنا، وكذلك كتاب المساحة المجهولة لأحمد بن نصر فما تقدم إلى مثله في معناه». (٣٣)

وممن أنصفه من المستشرقين الإيطالي (الدوميلي) ولو كان بترجمة موجزة ضمن إشارات بالازدهار العلمي الأول في الأندلس حينما قال: «ومن الرياضيين في هذا العصر أيضًا: أبو القاسم أصبغ بن محمد بن السمح، الذي نبغ في غرناطة، وتوفي عن ست وخمسين سنة ١٠٣٥م، وألف كتبًا في الحساب والهندسة، وأزياجًا فلكية». (٣٤)

#### ✓ آثاره ومؤلفاته:

أما عن آثاره العلمية، فقد ترك لنا ابن السمح الغرناطي جُملةً من المؤلفات المهمة في كثير من الفنون والمعارف بما يؤكد موسوعيته الفذة، ويمكن سرد تلك الآثار حسب العلوم التي تميز بها وفق الآتي:

#### في مجال الفلك:

أما عن بروز ابن السمح الغرناطي في علم الفلك، فقد اهتم في هذا العلم اهتمامًا بالغًا، وظهر ذلك من خلال إسهاماته في هذا المجال حيث ألف في ذلك "كتاب عن كيف تمت صناعة الاسطرلاب"، وكتاب آخر حول "العمل بالاسطرلاب"، وكما اختصر "كتاب المجسطي لبطليموس". ويذكر لنا ذلك صاعد الاندلسي بقوله: «ومنها كتاباه في الآلة المسماة بالأسطرلاب أحدهما في التعريف بصورة صنعتهما وهو مرتب على مقالتين والآخر في العمل بها والتعريف بجوامع ثمارها وهو مقسم على مائة وثلاثين بابًا». (٣٥)

كما ألف زيجًا شاملًا معتمدًا في تأليفه على كتاب "السند هند" الذي صنّفه لفيف من كبار علماء الهند، وكان لهذا الزيج الأثر الكبير في تطوير علم الفلك، ويحتوي على جزأين أحدهما في الجداول والآخر في رسائل الجداول، ويذكر لنا ذلك صاعد الاندلس بقوله: «ومنها زيجه الذي ألفه على أحد مذاهب الهند المعروف بالسند هند وهو كتاب كبير مقسم على جزئين أحدهما في الجداول والآخر في رسائل الجداول». (٣٦)

والجدير بالذكر أن زيج ابن السمح بقي من المراجع الضرورية للباحثين في علم الفلك، لما يحتوي عليه من معلومات نظرية وتطبيقية، ويغلب الدوميلي أنّ كتاب ( los libros del saber ) الذي جُمع بأمر الملك ألفونس مع مجموعات ثرية من كتب الفلك لعلماء مسلمين؛ قد أخذ عن أزياج أصبغ بن السمح القسم المعنون بـ : ( De cuemo puede ell ome fazer ) (una lamina a eada planeta). (٣٧)

#### في مجال الرياضيات:

كرّس ابن السمح دراساته في علم الهندسة بقراءة كتب الأولين وخاصة هندسة إقليدس المستوية والفراغية، وتقنّن بذلك حتى برع في هذا العلم، وكتب في هذا المجال كتابات قيمة منها:

"كتاب المدخل إلى الهندسة في تفسير كتاب إقليدس"، و"كتابه الكبير في علم الهندسة تقصى فيه أجزاء من الخط المستقيم والمقوس والمنحنى".<sup>(٣٨)</sup>

أما مكانة ابن السمح الغرناطي في ميدان علم الحساب فهي كبيرة جداً، فنتاجه في هذا الموضوع يُعدُّ من أهم المصادر، لأنها تحتوي على أفكار مهمة لا يستغني عنها طالب علم أو تاجر أو باحث في العلوم الرياضية، ومن مصنفاته في هذا الحقل: "كتاب ثمار العدد" المعروف بالمعاملات، و"كتاب طبيعة العدد"،<sup>(٣٩)</sup> وكتاب "الكامل في حساب الهوائي"،<sup>(٤٠)</sup> وكتاب "الكافي في حساب الهوائي".<sup>(٤١)</sup>

#### في مجال الطب:

كان أبو القاسم ابن السمح الغرناطي واسع الاطلاع ليس فقط في علمي الفلك والرياضيات، بل كانت مع ذلك عناية واسعة بالطب.<sup>(٤٢)</sup> وكان له أثرٌ بينٌ في ذلك، فوضع عيادة للطب في بيته في غرناطة لعلاج أفراد عائلته وأقاربه وأصدقائه، حيث إنَّ وقته كان منصباً حول البحث والرصد في ميدان علم الفلك.<sup>(٤٣)</sup>

#### ✓ وفاته:

توفي ابن السمح الغرناطي في مدينة غرناطة قاعدة الأمير حبوس بن ماكسن بن زيري بن مناد الصنهاجي ليلة الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ٤٢٦ هـ الموافق لشهر مايو (١٠٣٥ م) وهو ابن ست وخمسين سنة.<sup>(٤٤)</sup>

## ■ الخاتمة:

وبعد: فلعله من خلال العرض السابق للموسوعية عند العلماء المسلمين ومن خلال الاستشهاد بنموذج واحد من هؤلاء العلماء اتضحت للقارئ مجموعة من الوقفات التي يمكن أن تمثل نتائج لهذا البحث وخاتمة له بما يمكن عرضه وفق الآتي:

- أوضحت الدراسة كيف برع العلماء المسلمون في كل أنواع العلوم. فمن مبادئ الإسلام انطلقوا حيث كان هناك منهج واضح ساروا عليه وقاد إلى نتائج متميزة، ورأينا كيف أبدعوا بمقدرتهم على الجمع والتصنيف بشتى العلوم وهذا يعد من أهم إنجازاتهم، وبهذا أصبحت تلك السمة سمة لكثير من علماء الحضارة الإسلامية الذين كان لهم إسهام في أكثر من علم، فوسموا بالعلماء الموسوعيين وأثروا الحضارة الإنسانية وأثروا فيها.

- أظهرت لنا الدراسة أسماء العديد من العلماء المسلمين الذين برعوا وذاع صيتهم بمؤلفاتهم التي لم تقتصر على جانب واحد من العلوم رغم اشتغالهم بهذا العلم أو ذاك، بل شملت تخصصات مختلفة وهؤلاء هم ما يمكن أن يُطلق عليه ضمن حركة الحضارة بالعلماء الموسوعيين بما تميزوا به من موسوعية العلوم ببروزهم بمجموعة من العلوم، وفي بحثي هذا لا أدعي أنني حصرت هؤلاء العلماء الموسوعيين بل إنني أشرت إشارات سريعة لنماذج منهم في عصور مختلفة لتكون شواهد حيّة على تلك الظاهرة.

- أوضحت الدراسة أنه على الرغم من اهتمام العلماء المسلمين في البداية بميادين العلوم الشرعية وما يخدمها من علوم لغوية، فإنهم مع هذا لم يغفلوا عن العلوم الأخرى، حيث انسحب ذلك إلى الاهتمام والتأليف بعلوم تطبيقية أخرى تخدم البشرية في مختلف أمور حياتهم كعلم الطب والفلك والفيزياء والحساب والجغرافيا وغيرها من العلوم المختلفة.

- أظهرت الدراسة أنّ جميع العلماء المسلمين سواء من استمر في طريق العلم الشرعي أو من تفرع وبرع في العلوم التطبيقية لابد أن يكون ملماً بشيء من العلوم الشرعية وعلوم اللغة.

- شهدت الدراسة أنّ وراء بروز هؤلاء الموسوعيين وما خلفوه لنا من كنوز عظيمة في مختلف ميادين العلوم والمعرفة ومما اعطاهم الحرية الكاملة للكتابة وتأليف مئات المجلدات في تخصصات مختلفة وعلى اختلاف عصورهم وعلى رغم الانقلابات السياسية وعدم الاستقرار أحياناً، هو ذلك الاهتمام من الخلفاء والولاة على مدى العصور الإسلامية بالعلم، وبالكتب، وبالعلماء، الذي لم يقتصر اهتمامهم على حد التحفيز والتشجيع، بل شمل شتى جوانب النهضة العلمية، وتيسيرها على طلبة العلم، ووصل إلى حد الحث على كتابة المؤلفات، وبذل العطايا بسخاء تشجيعاً على إنجازها، فلا عجب بعد ذلك أن نرى حواضر



العالم الإسلامي في مصر والشام والعراق والأندلس تعجُّ بالعلماء النوابغ الذين أناروا العالم كله من مغربه إلى مشرقه، وبنوا حضارة أضاءت الشرق والغرب، وبقيت حتى يومنا هذا مثالاً يحتذى به، ودليلاً راسخاً على أنّ العلم سبيل للنهضة والرفق والازدهار في كافة مناحي الحياة.

- من خلال ما تقدم يمكن القول وبكل وثوق أنّ العصر الإسلامي على امتداده هو عصر الموسوعيين والموسوعات وهو عصر ازدهار ثقافي وعلمي بما خلفه لنا هؤلاء الموسوعيون من آثار علمية باقية، فنجد المكتبات مليئة بمؤلفاتهم التي مازالت محفوظة منذ آلاف السنين وأن دل ذلك على شيء فإنه يدل على أهميتها القصوى وما تحويه في ثناياها وما سجله هؤلاء النوابغ بين السطور من حفظ للعلوم وابتكارات واكتشافات أفادت البشرية والأمم من بعدهم. وقد أبدعوا في مختلف التخصصات فتركوا آثاراً تدل على عبقرية وموسوعية هؤلاء العلماء.

- ثمّ إنه ومن خلال المحور الثاني لهذا البحث تم تناول شخصية ابن السمح الغرناطي كأنموذج لهؤلاء العلماء الموسوعيين، وتعرفنا على تميزه وآثاره ونبوغه بالعديد من العلوم التطبيقية التجريبية كالفلك والرياضيات والطب أكثر من العلوم الشرعية بما يستحق أن يكون أنموذجاً بيئاً لهذه الظاهرة.

- أوضحت الدراسة أن من يقرأ مؤلفات ابن السمح يتوصل إلى أنّه من أصحاب الثقافة العالية والاطلاع الواسع، ومن خلال بحثي عن ابن السمح أجد أنه لم يُعط حقه كغيره من العلماء حيث لم تعطى شخصيته الاهتمام لذا لم أحصل إلا على القليل من المعلومات المتناثرة التي تناولت سيرته وآثاره.

هذا عرض سريع لإسهام واحد من العلماء المسلمين متمنية أن تكون هذه السيرة المختصرة عن عالمنا الموسوعي ابن السمح الغرناطي بادرة لدراسة أعمق في المستقبل، لكي نظهر مآثره وإنجازاته في علم الفلك والعلوم الرياضية والطبية.

والحمد لله فاتحة كل خير وتمام كل نعمة وصل اللهم على نبينا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا كثيرًا.

■ الملاحق :



• اللوحة الأولى من مخطوط كتاب رسالة في العمل بالأسطرلاب لابن السمع.



لوحة من مخطوط الكافي في الحساب الهوائي لابن السمع.

## References

- (١) له ترجمة ضافية ومطولة لدى الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م). معجم الأدياء، المسمى: "إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب"، بيروت: دار إحياء التراث العربي. ج ١٦، ص ٢٨١-٣٢٧.
- (٢) الرازي، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، ابن أبي حاتم (ت ٣٢٧هـ/ ٩٣٨م). كتاب آداب الشافعي ومناقبه. ط١. تحقيق عبد الغني عبد الخالق. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٤هـ (٢٠٠٣م). ص ٣١.
- (٣) الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٨م). سير أعلام النبلاء. مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط. مؤسسة الرسالة. ج ١٠، ص ١٠١-١٠٢.
- (٤) الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي (ت ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م). تاريخ بغداد. لمحقق: الدكتور بشار عواد معروف. بيروت: دار الغرب الإسلامي. ١٤٢٢هـ (٢٠٠١م). ج ٢. ص ٥٤٨. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م). البداية والنهاية. دار الفكر. ١٤٠٧هـ (١٩٨٦م). ج ١١، ص ١٤٥.
- (٥) وردت ترجمة له ضافية لدى الحموي. معجم الأدياء. ج ١٧، ص ١٨٠-١٩٠.
- (٦) ابن أبي أصيبعة، أبو العباس موفق الدين أحمد بن القاسم (ت ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م). عيون الأنباء في طبقات الأطباء. شرح وتحقيق الدكتور نزار رضا. بيروت: دار مكتبة الحياة. ص ٤٥٩.
- (٧) ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي (ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م). وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. تحقيق: إحسان عباس. بيروت: دار صادر. ١٣١٨هـ (١٩٠٠م). ج ٣. ص ٢٨٢.
- (٨) الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت ٧٦٤هـ/ ١٣٦٣م). الوافي بالوفيات، ج ١، نشر باعتناء هلموت ريتز، فسبادن، المانيا ١٣٨١هـ (١٩٦٢م)، ص ١٦٣-١٦٤.
- (٩) الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الدمشقي (ت ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م). الأعلام. ط١٥. بيروت: دار العلم للملايين. (٢٠٠٢م). ج ٧. ص ٢٤.
- (١٠) الحموي. معجم الأدياء. ج ١٣، ص ٧٣-٨٧؛ ابن خلكان. وفيات الأعيان. ج ٣، ص ٣٠٩. ص ٣١١.
- (١١) سير أعلام النبلاء. ج ١٩. ص ٥٠١-٥٠٢.
- (١٢) ابن أبي أصيبعة. عيون الأنباء في طبقات الأطباء. ص ٥٧٦. ص ٥٧٧.
- (١٣) السخاوي، شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد (ت ٩٠٢هـ/ ١٤٩٧م). الضوء اللامع لأهل القرن التاسع. بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة. ج ٢، ص ٢٩٢. وكتاب عنوان الشرف الوافي في الفقه والتاريخ والنحو والعروض والقوافي، جمع فيه خمسة علوم، إذا قرئ على حسب سياق السطور فهو علم الفقه، وإذا قرئ أوائل السطور عموديا؛ فهو علم العروض، وإذا قرئ من آخرها عموديا؛ فهو علم القوافي، وإذا قرئ العمود الأول الذي يخترق الصفحة؛ فهو تاريخ الدولة الرسولية، والعمود الثاني علم النحو.

- (١٤) ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد (ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٩م). إنباء الغمر بأبناء العمر. تحقيق د حسن حبشي. مصر: لجنة إحياء التراث الإسلامي. (١٩٦٩م). ج٤. ص ١٨٧-١٨٨.
- (١٥) ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكي (ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م). المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي. حققه ووضع حواشيه: دكتور محمد أمين. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب. ج١. ص ٤١٥.
- (١٦) السخاوي. الضوء اللامع لأهل القرن التاسع. ج٢. ص ٢٢.
- (١٧) الزركلي. الأعلام. ج١. ص ١٧٧-١٧٨.
- (١٨) ممن ترجم له: صاعد الأندلسي، أبي القاسم صاعد بن أحمد (ت ٤٦٢هـ / ١٠٦٩ - ١٠٧٠م). طبقات الأمم. نشره وذيله بالحواشي الأب لويس شيخو اليسوعي. بيروت: المطبعة الكاثوليكية للأباء اليسوعيين. (١٩٦٨م). ص ٦٩-٧٠، ابن الأبار، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر القضاعي (ت ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م). التكملة لكتاب الصلة، تحقيق عبدالسلام الهراس. بيروت: دار الفكر ١٤١٥هـ (١٩٩٥م). ج١ ص ١٧٠-١٧١، ابن أبي أصيبعة. عيون الأنباء. ص ٤٨٣، العمري، أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي العدوي شهاب الدين (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٩م). مسالك الأبصار في ممالك الأمصار. تحقيق أ. د محمد عبدالقادر خريسات وآخرون. العين: مركز زايد للتراث والتاريخ. (٢٠٠١م). ج٩، ص ١٨٩.
- (١٩) التكملة لكتاب الصلة، ج١. ص ١٧٠-١٧١.
- (٢٠) علي عبدالله الدفاع. رواد علم الفلك في الحضارة العربية والإسلامية. ط٢. الرياض: مكتبة التوبة. ١٤١٤هـ (١٩٩٢م). ص ٨٤.
- (٢١) عيون الأنباء. ص ٤٨٣. والمستنصر بالله هو تاسع الخلفاء الأمويين في الأندلس (٣٥٠-٣٦٦هـ / ٩٦١-٩٧٦م).
- (٢٢) خليل السامرائي وآخرون. تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس. ط١. بيروت: دار الكتاب الجديد. (٢٠٠٠م). ص ٣٢٧.
- (٢٣) صاعد الأندلسي. طبقات الأمم. ص ٦٦.
- (٢٤) صاعد الأندلسي. طبقات الأمم. ص ٦٦.
- (٢٥) الأزدي، محمد بن فتوح بن عبد الله بن فتوح بن حميد (ت ٤٨٨هـ / ١٠٩٥م). جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس. القاهرة: الدار المصرية للتأليف والنشر. (١٦٩٩م). ج١، ص ١٣.
- (٢٦) ابن أبي أصيبعة. عيون الأنباء في طبقات الأطباء. ص ٤٨٢.
- (٢٧) القفطي، جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف (ت ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م). أخبار العلماء بأخبار الحكماء، القاهرة: مكتبة المتنبى. (د. ت). ص ٢١٤.
- (٢٨) طبقات الأمم. ص ٦٩.
- (٢٩) طبقات الأمم. ص ٦٩-٧٠.
- (٣٠) طبقات الأمم. ص ٦٩.
- (٣١) التكملة لكتاب الصلة، ج١ ص ١٧٠.
- (٣٢) العمري. مسالك الأبصار في ممالك الأمصار. ج٩، ص ١٨٩.



- (٣٣) المقرئ، شهاب الدين أبو العباس أحمد ابن محمد (ت ١٠٤١هـ / ١٦٣٢م). نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب. تحقيق: الدكتور إحسان عباس. بيروت: دار صادر. (١٩٦٨م). م٣، ص ١٧٦.
- (٣٤) الدوميلي. العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي، نقله إلى العربية: عبدالحليم نجار. ومحمد يوسف مرسي، ط١، دار القلم، القاهرة، ١٣٨١هـ (١٩٦٢م). ص ٣٥١.
- (٣٥) صاعد الأندلسي. طبقات الأمم. ص ٦٩-٧٠.
- (٣٦) صاعد الأندلسي. طبقات الأمم. ص ٦٩-٧٠.
- (٣٧) العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي، ص ٣٥٢.
- (٣٨) صاعد الأندلسي. طبقات الأمم. ص ٦٩-٧٠.
- (٣٩) صاعد الأندلسي. طبقات الأمم. ص ٦٩-٧٠.
- (٤٠) حاجي خليفة، مصطفى بن عبدالله (ت ١٠٦٧هـ / ١٦٥٦م). كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون. بغداد: مكتبة المثنى. ج ٢، ص ١٣٨١.
- (٤١) حاجي خليفة. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون. ج ٢، ص ١٣٧٧.
- (٤٢) صاعد الأندلسي. طبقات الأمم. ص ٦٩.
- (٤٣) علي عبدالله الدفاع. رواد علم الفلك في الحضارة العربية والإسلامية. ص ٨٤.
- (٤٤) صاعد الأندلسي. طبقات الأمم. ص ٦٩-٧٠.